بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شهرية بعنوان:

فتنة المرجعية

بقلم

محمد بن سعيد الأندلسي

عفا الله عنه

لشهر ربيع الأول من عام ١٤٤٤ هـ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد فمن أعظم القضايا التي تحدد مسار السالك هي المرجعية العلمية في التلقي أو الاختيار الأصولي للمتلقي، فهي أشبه بسكة القطار التي يختارها السالك فيصل منها إلى محطة العبودية الخالصة لله وسبيل المؤمنين أو إلى عبودية الطاغوت والهوى والشيطان وسبيل المجرمين، فهذا الاختيار يحدد الهوية الدينية للسالك، فالفروع تُصححها الأصول ويلتزم الناظر بمُخرجاتها، حيث أنه إذا تبنى أصولاً معينة يكون قد اختار القول في فروع كثيرة متناثرة ... إنها فتنة المرجعية وهي فتنة قديمة متجددة لم ينج منها إلا لمن عرف الحق وأصوله فعرف أهله وحملته ... لذلك من العبث أن تُناظر من خالفك في الأصول في فرع من مخرجات تلك الأصول، كأن تناظر نظَّاميا في حكم أكل ذبائح قومنا أو نُكرانيا في فرضية الصلوات الخمس أو ظاهريا في حكم الدخان !! ... فمن اعتقد أنَّ للكون أقطاب وأبدال وأوتاد تجده منطرحا بين أعتاب عبودية المشايخ في ضمن الولاية الصوفية وقد قلت في النونية:

كَطَرائِقِ الصُوفِيَةِ فِي دَارِنَا	كَالشَّاذِلِيّ الشَيخِ والتَيجَانِ
ذاكَ المُريدُ في حَضرةِ أَشيَاخِهِ	خَلعاً لعقلٍ قبل ذا النعلانِ
قَد كُبّلَ وِرداً طَويلاً ذِكرُهُ	عَبدٌ لِشَيخٍ شَيخُهُ الشَيطانِ

ومن سلَّم عقله لمشايخ المخابرات والبلاط الملكي تجده يأخذ الدين عن أسماء محدودة لا يخرج عن قولها لحفظ النظام العام الوضعي في هذه الجاهلية النكراء وقد قلت في النونية:

سَلفِيَّةٌ عِلميَّةٌ تَّسمُوا إلى	تَثْبِيتِ مُلكِ سُمو آل سَلمانِ
وذُيولُهم في المَغربِ والمَشرِقِ	قَد ثَبَتُوا عَرشِ بَني عَلمَانِ
للتَّصفيَةْ والتَّربيةْ والتَّوعيَةْ	بِواجِبَاتِ طَاعَةِ الطُغيانِ
أَوفى الكِلابُ لسَيّدٍ فِي طَاعَةٍ	تُقادُ كالحُمْرِ مِن الأُذُنَانِ

وهكـــذا قـــل فـــي الرافضـــة الاثنـــا عشـــرية فلهـــم مراجـــع ومرجعيـــة، وكـــذا الإخـــوان لهـــم رمـــوز ومفكـــرين، وهكـــذا أتبـــاع القاعـــدة والدولـــة لهـــم رمـــوز ومشـــايخ ومنظـــرين يتلقـــون مـــنهم ويتعصـــبون لهـــم ... ومـــثلهم فـــي القـــديم متعصـــبة المـــذاهب لا يخرجـــون عـــن المـــذهب قيـــد الأنملـــة بـــل يـــذبون عنـــه فـــي جميـــع الـــرخص والعـــزائم والاختيـــارات ولـــو كـــان المـــذهب خـــلاف صـــريح الكتـــاب والســـنة تجـــدهم يجـــادلون عنـــه بالباطـــل والاستحســـان حتـــى ينتصـــروا لفتـــوى الشـــيخ الإمـــام ... وهكـــذا الســـلاطين والطواغيـــت يصـــنعون للـــدهماء قـــدوات ومشـــايخ وخطبـــاء ومجـــالس إفتـــاء تســـوس النـــاس إلـــى حظيـــرة الطاعـــة وتكبـــل أيـــديهم عـــن المنازعـــة والخـــروج ... وهكـــذا يتربـــى النـــاس فـــي هـــذه الجاهليـــة علـــى تعظـــيم الأعـــلام المصـــنوعة فـــي الإعـــلام والمنـــاهج والمنـــابر حتـــى يصـــلون إلـــى مرحلـــة العبوديـــة الفكريـــة لهـــم فـــلا يســـتطيعون الخـــروج علـــى تلـــك الربقـــة بـــل لا يســـتطيعون رؤيـــة أنفســـهم خـــارج تلـــك الـــدائرة التـــي رســـمها لهـــم هـــؤلاء، ولا يجـــرؤون علـــى مخالفـــة القطيـــع أو التقـــدم بـــين يـــدي المريـــاع، وإذا قلـــت للممســـوخ مـــنهم قـــال اللـــه تعـــالى أو قـــال النبـــي ﷺ أو اتفـــق ســـلف الأمـــة لا يحـــدث فـــي نفســـه ورعـــا ويجيـــب بقولـــه: خالفـــت أقـــوال الشـــيوخ!!، وفـــي المقابـــل إذا قلـــت لـــه قـــال **"الشـــيخ"** رأيتـــه مستســـلما لمقالـــه لا يســـأل فـــي ذلـــك عـــن المأخـــذ والـــدليل ... فـــي تعظـــيم شـــديد لمقالـــة المتبـــوع المجـــردة وانقيـــاد واستســـلام تـــام لهـــا ... وفـــي الغالـــب تجـــد هـــؤلاء قـــد ألغـــوا عقـــولهم وشـــعارهم **"شـــيخي يفكـــر عنـــي"** وقـــد ســـماهم الإمـــام أحمـــد **"بأصحاب العقول المستريحة"** وحالهم كما قلت في النونية:

إنْ قُلْــتَ قَــالَ شَــيخُنا أَنْعِــمْ بِــهِ	قَــالَ إِمِــامُ العَصــرِ كَــالعُمَرَانِ
إنْ قَــالَ لا تَســأَلْ لــهُ عــنْ أَصــلِهِ	تَســلِيمُنَا مِــنْ أَفضَــلِ القُربَــانِ
قَــدْ نَصَّــبُوهُ إِلاَهَهُــم لــو يَعلَمُــوا	لَكِــنَّهُم قَــد أُطْمِسُــوا البَصَــرانِ
قَــد غَشَّــهُم فِــي أَصــلِ دِيــنِ الأَنْبِيَــاء	فَــدَانُوا غَيــرَ مِلَــةِ الخِــلانِ

ثـم جـاء قـوم فنظـروا إلى حـال هـؤلاء فمقتـوا سـعيهم وازدروا سـبيلهم فقـابلوا بـدعتهم ببدعـة أخـرى حيـث أنهـم رفضـوا كـل إمـام متبـوع مـن سـلف هـذه الأمـة وخلفهـا ولـم يرتضـوا لأنفسـهم أن يأخـذوا منهم الـدين ولـو في مـواطن إجمـاعهم فضـلا في نازلـة أو حادثـة، فزعمـوا رفـع لـواء **"تجريـد التلقـي"** مـن الـوحيين فقـط!! وقـالوا بلسـان حـالهم للسـلف:" **نحـن رجـال وهـم رجـال" والصـواب أنهـم بادنجـال** ... فلمـا خُليَّ بينهم وبين الـوحيين جـاءوا بالعجـب العجـاب فـأكلوا مـن لحـوم المشـركين ونكحـوا نسـاءهم وشـربوا الـدخان والحبـوب والحشـيش وأجـازوا الاخـتلاط وسـماع الموسـيقى ونـزع الخمـار ومنهم مـن أجـاز نكـاح تسـعة نسـوة ومنهم مـن كفَّـر بعـض الصـحابة وأنكـر الشـرك الأصـغر والشـفاعة وغير ذلـك مـن الطامـات في الفـروع والأصـول التي هي مُخرجـات تجريـد النظـر عنـد هـؤلاء ... وقـد كنـت وقفـت على كـلامٍ للأوزاعي لـم يخطـئ هـؤلاء قيـد الأنملـة وقـد لبسـهم قولـه ولبسـوه، قـال الْأَوْزَاعِيّ: «وَمَـا رَأْيِ امـرئ فِي أَمْـرٍ بَلَغَـهُ عَـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ إِلَّا اتِّبَاعُـهُ وَلَـوْ لَـمْ يَكُـنْ فِيـهِ عَـنْ رَسُـولِ اللَّـهِ ﷺ وَقَـالَ فِيـهِ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ **كَانُوا أَوْلَى فِيهِ بِالْحَقِّ مِنَّا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْنَى عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُمْ** فَقَـال ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ ﴾ **وَقُلْـتُمْ أَنْـتُمْ لَا بَـلْ نَعْرِضُـهَا عَلَـى رَأْيِنَـا فِـي الْكِتَابِ فَمَا وَ افَقَهُ مِنْهَا صَدَّقْنَاهُ وَمَا خَالَفَهُ تَرَكْنَاهُ وَتِلْكَ غَايَةُ كُلِّ مُحْدِثٍ فِي الْإِسْلَامِ رَدُّ مَا خَالَفَ رَأْيَهُ مِنَ السُّنَّةِ**»[1] ... فكـل مـن أراد الإحـداث في الـدين نبـذ فهـوم القـرون الخيِّـرة واسـتقل بـالنظر دونهـم **فخـرج عـن جمـاعتهم إلـى البدعـة والضـلالة ولابـد**، فمـا بالـك بعقـول معاصـرة تسـتقل بـالنظر في الـوحيين وتـزعم أنهـا راجحـة مـن عقـول الصـحابة والتـابعين فتـدرك مـا لـم يـدركوه وتفهـم

[1] رواه الهروي في ذم الكلام برقم ٩١١

من الوحي ما لم يفهموه بل تعارض ما اتفقوا عليه وقرروه!! مع الفارق الزماني البعيد والبون الشاسع في الإدراك والتوفيق والعمل بين الجيل الأول والمعاصرين ... ولا شك أن النموذج الأول للجماعة المسلمة هو الصبغة التي ارتضاها الله لهذه الأمة وأمرنا باتباعها كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ١٠٠]، فالدين هو الأمر العتيق ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها كما قرر ذلك إمام دار الهجرة، فكيف يأتي معاصرٌ بليد فينسب الجماعة الأولى إلى الخطأ والضلال ويتفرد هو بالهدى والحق والصواب!!، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة١٣٧]، قَالَ الزّجاج: "مَعْنَاهُ فَإِن أَتَوا بِإِيمَان كإيمانكم، وتصديق كتصديقكم، وتوحيد كتوحيدكم، وَقَالَ أَبُو معَاذ النَّحْوِيّ: مَعْنَاهُ فَإِن آمنُوا بِكِتَابِكُمْ كَمَا آمنتم بِكِتَابِهِمْ"[٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[التوبة ١١٩]، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ نَافِعٍ عن بن عُمَرَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ قَالَ: «مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ»[٣].

فهي نابتةٌ لا تقل خطراً عن عباد الشيوخ الطواغيت فهم عُبَّاد الآراء والدراويش ... نابتةٌ شذت عن منهج الصحابة رضوان الله عليهم، وحملت معول الهدم المبطن للدين بالطعن في فهوم نقلة هدي النبي الأمين ﷺ، فخرجت على أقوالهم وهديهم وطعنت في وفاقهم وإجماعهم، ونصَّبت الجهلة

[٢] تفسير السمعاني ١٤٦/١

[٣] رواه ابن ابي حاتم برقم ١٠٠٩٧

أئمة دونهم، قال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم"[٤].

والطعن في إجماع الصحابة والخروج على قولهم أو عملهم هو سبيل أهل البدع من الخوارج والنظامية والمعتزلة والرافضة والجهمية الذين خرجوا على فهومهم وجماعتهم وأحدثوا في دين الله مقالات وأعمال فارقوا بها جماعة المسلمين، قال ابن عباس للخوارج حين ناظرهم: «جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول الله ﷺ وعليهم نزل القرآن وهم أعلم بتأويله»[٥]، وقال السمعاني:" واجتمعت الأمة على تكفير الامامية لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما يليق بهم"[٦]، وقال أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني:" ومن قول أهل السنة: أنه لا يعذر من أداه اجتهاده إلى بدعة، لأن الخوارج اجتهدوا في التأويل **فلم يعذروا إذ خرجوا بتأويلهم عن الصحابة** فسماهم عليه الصلاة والسلام مارقين من الدين، وجعل المجتهد في الأحكام مأجورا وإن أخطأ"[٧].

والمنهج السليم والمرجعية الصحيحة والوسطية هي الاقتداء بما كان عليه الجيل الأول والقرون المفضلة وتنزيل الحوادث والنوازل على أصولهم التي أصلوها وطرقوها في هذا الشأن ... ولا شك أنَّ في كل زمان إمامٌ قائم لله عزَّ وجل بالدعوة إلى الحق والرجوع إلى الأمر الأول والفهم على أصول السلف الصالح، فهو ومن كان معه على ذلك الجماعة ... فالجماعة عالم مستمسك بأثر النبي ﷺ ومن كان معه كما رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ وَذَكَرَ فِي حَدِيثٍ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ

[٤] أصول السنة ص١٤

[٥] جامع بيان العلم وفضله ١٢٧/٢

[٦] الأنساب ٣٦٥/٦

[٧] الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص١٢١

لِيَجْمَعَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الِاخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا يَعْقُوبَ، مَنِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدُ بن أسلم وأصحابه ومن تبعه، ثُمَّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ الْمُبَارَكِ: مَنِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ؟ قَالَ: أَبُو حَمْزَةَ السُّكَّرِيُّ. ثُمَّ قَالَ إِسْحَاقُ: فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ .يَعْنِي أَبَا حَمْزَةَ .وَفِي زَمَانِنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ، وَمَنْ تَبِعَهُ ثُمَّ قَالَ إِسْحَاقُ: لَوْ سَأَلْتَ الْجُهَّالَ عَنِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ لَقَالُوا: جَمَاعَةُ النَّاسِ، **وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْجَمَاعَةَ عَالِمٌ مُتَمَسِّكٌ بِأَثَرِ النَّبِيِّ ﷺ وَطَرِيقِهِ**، فَمَنْ كَانَ مَعَهُ وَتَبِعَهُ فَهُوَ الْجَمَاعَةُ. ثُمَّ قَالَ إِسْحَاقُ: لَمْ أَسْمَعْ عَالِمًا مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً كَانَ أشد تمسكاً بأثر النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْلَمَ"[٨]، قال ابن القيم:" وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ وَالْحُجَّةَ وَالسَّوَادَ الْأَعْظَمَ هُوَ الْعَالِمُ صَاحِبُ الْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ "[٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين

تمت



[٨] روى الأثر مختصراً الذهبي في السير (١٢ ١٩٦ . ١٩٧) وفيها هذه الجملة. والأثر مخرج في الحلية (٩ ٢٣٨ . ٢٣٩).

[٩] إعلام الموقعين.